# من الصحافة ... إلى الأدب

بقلم الدكتور سهيل ادريس

دخلت الحياة الأدبية من باب الصحافة

وقد تلقيت ذات يوم، من عام ١٩٤٣، رسالة من المرحوم سعيد فريحة، رئيس تحرير مجلة «الصياد»، يدعوني فيها إلى زيارته، بعد أن حدَّثه عني «صديق للطرفين» كما قال، في معرض البحث عن «محرّر نشيط».

وحين قابلت سعيد فريحة في مكتبه، وكان آنذاك في منطقة «اللعازارية»، سألته عن طبيعة عملي في التحرير، فأجابني بلا تردّد:

ـ «مِنْ كلُّه»!

سألت: ـ أيّ باب في المجلة؟

قال: ـ جميع الأبواب!

أردت أن أعترض، فقلت: ـ ولكن...

قاطعني قائلاً: ـ لا «لكن» ولا «إن» ولا «لعلّ»!

فضحكت... وتابع سعيد فريحة:

ـ تطرق جميع الأبواب... إلى أن يفتح الله عليك بأحدها، فتدخل!

وضحكت مرة أخرى، ثم سارعت أقول:

ـ موافق... فلنجرّب!

قال: ـ عظيم!

وأضاف بعد لحظات:

ـ أما الراتب، فنتّفق عليه بعد التجربة!

فاستحيت أن أسأله عن مدّة التجربة، بالرغم من أن أسرتي كانت في مسيس الحاجة إلى مشاركتي في نفقاتها.

واحتللت في اليوم التالي غرفة صغيرة في مكتب «الصيّاد» كانت تطلّ على بيوت قديمة في «اللعازارية». وجلست وراء مكتبي، والزهو يملأ نفسي، وطلبت فنجاناً من القهوة، وبسمة من سخرية ترتسم على شفتيّ: «قال بعد التجربة... قال!» ثم تساءلت: «والقصص التي تنشرها لي مجلات «الأمالي» و«المكشوف» و«الجمهور»... ألم تدخل في «التجربة» وتخرج منها بنجاح؟»

وفي ظهيرة ذلك اليوم نفسه، قدَّمت لسعيد فريحة قصة قصيرة كنت كتبتها منذ أيام، فنظر إلى عنوانها ثم قال بسرعة:

ـ لا أحبّ القصص!

أصبت بالذهول، غير أني تمالكت نفسي وتساءلت:

ـ ولكن كل ما تكتبه في «الجعبة»، يا أستاذ سعيد، هو من القصص!

قال بكل هدوء:

ـ ولكنها «غير شكل»!

ثم استدرك يقول:

ـ ومع ذلك، سأقرأ القصة الآن. تفضّل بالجلوس.

وجلست وأنا أرتعش. وفيما هو يقرأ القصة، تذكّرت ما أعرفه عن سعيد فريحة من أنه رجلٌ أُمّي لم يدخل مدرسة، وأنّه كان حلاّقاً، ثم بائع صحف... على ما روى في «جعبته»... في حين أني تعلمت في الكلّيات، وبدأت دراسة الحقوق في الجامعة وإن كنت لم أنجح في الامتحان الشفهي.. وها هو الآن يخضعني لامتحان خاصّ ولا أدري إذا...

قطع عليّ صاحب «الصياد» حبل التفكير حين مدّ يده بالقصة يعيدها لي قائلاً:

ـ ثقيلة الدم... وإن كانت جميلة اللغة!

وبالرغم من شعوري بأنه «جَرَح وداوى» بهذا الحكم، فقد قلت معترضاً:

ـ القصّة إما أن تكون جميلة، أو رديئة.. أما ثِقَل الدم..

قاطعني يقول:

ـ لا تزعل يا أستاذ.. إذا قلت لك إن ثقل الدم هو من الرداءة!

ثم أردف وهو يمدّ لي يده بمجموعة رسائل وأوراق التقطها عن مكتبه:

ـ تفضل فاقرأها، واختر ما يصلح منها للنشر، وافتح باباً جديداً تعلّق فيه على ما يلفت النظر ويثير الاهتمام في هذه الموادّ...

ثم أنهى كلامه ضاحكاً:

ـ ولا تَنْسَ المقياس: خفّة الدم!

ثم نهض وخرج دون أن يترك لي فرصة للتعليق.

عدت إلى مكتبي الصغير يتجاذبني إحساس متناقض من الرضى والسخط: لقد أخذ على القصة ثقل الدم واعترف بجمال اللغة، فما يكون موقفي؟

وشعرت بضيق في الصدر، فاتجهت إلى نافذة المكتب أودّ أن أستروح هواء يخفّف من ضيقي. وإذ ذاك رأيت تلك الفتاة على شرفة الطابق الثاني من البيت المقابل.

ومنذ تلك الساعة، انعقدت علاقة ملتبسة بين نافذتي وشرفتها.

ثم انتقلت العلاقة فأصبحت بين يدي وهي تكتب الرسائل القصيرة وحديقة البيت المقابل وهي تتلقى هذه الرسائل. ولم تلبث هذه الحركات المتواطئة أن أثمرت مواعيد مع «أناهيد».

وكرمى لـ «أناهيد»، تلاشت الاعتراضات على ديكتاتورية سعيد!

وبعد عدّة لقاءات تمّ بعضها في دور السينما وتبادلنا في ظلامها القبلات والملامسات، انتهزت «أناهيد» فرصة غياب والدتها في سفرٍ إلى ذويها في «البقاع»، فاستقبلتني في منزلها، وشرعت أمامي بابَ الأنوثة اللاهبة، فأذاقت الشابّ ذا السبعة عشر عاماً الذي كُنته، أوّل لذائذ الثمرة الناضجة.

ولم يمض وقت طويل حتى بلغنا أن املاك «اللعازارية» قد بيعت لبعض كبار المتموّلين، وأنّ الأبنية القديمة التي كانت قائمة فيها ستُهدم ليُقام مكانها أحد أفخم الأبنية في بيروت.

وبهدم مكاتب «الصياد» القديمة والبيوت المجاورة لها في المنطقة، انقطعت العلاقة بين النافذة والشرفة، ونزحت «أناهيد» مع أمّها إلى أحياء الأرمن في «عنجر» بالبقاع.

وانتقلت مكاتب المجلة إلى شارع اللنبي، وعدت أواجه دكتاتورية سعيد فريحة الذي ينبغي الاعتراف بأنه طوّعني لمزاجيّته، فصرت أكتب كما يريدني أن أكتب، وأتحدّث في موضوعات أعدّني دخيلاً عليها كموضوع المغنّين والمغنّيات الذين كتبت عنهم عدة مقالات وصفها رئيس التحرير بأنها ليست «ثقيلة الدم»...

وحدث أني اخترت للنشر، ذات يوم، قصيدة لطاغور ترجمها أحد القرّاء.

وفي الأسبوع التالي فوجئت بنشر رسالة في «الصياد» موجّهة إلى محرّر باب «من القرّاء وإليهم» (وهو الباب الذي كنت أشرف عليه) وفيها يكشف كاتبها أن قصيدة طاغور، المنشورة في العدد السابق، كان قد أرسلها إلى المجلة منذ حين، وانتظر أسابيع فلم تنشر، ثم عمد إلى إرسالها مرة أخرى مدّعياً أنها مترجمة عن طاغور، وهي ليست إلا من انتاجه هو، فنشرها «المحرّر الغبيّ» (وكان لا يقصد طبعاً إلّاي...) لمجرّد أنه نسبها إلى طاغور! وكانت هذه الرسالة تحمل توقيع «منصور الرحباني»، وهو لم يكن إلا أحد الأخوين رحباني اللذين طارت لهما، في ما بعد، شهرة عظيمة في تأليف الأغاني وتلحينها والتي خلّدتها فيروز بصوتها الرائع...

كان نشر رسالة الرحباني، من غير أن أطّلع عليها قبل النشر، «مقلباً» آخر قام به سعيد فريحة، بالإضافة إلى مقلب منصور الذي تقبّلته ببرودة أعصاب، معزّياً نفسي بأنني ليس من المفروض أن أكون مطّلعاً على كامل أعمال طاغور لأكتشف ما قد يُنسب إليه تزويراً... أما أن يوافق رئيس تحرير مجلة على نشر إهانة لأحد محرّريها، بدلاً من أن يحذف النعت الذي يحمل هذه الإهانة، فأمر يتطلّب موقفاً يقتضيه الدفاع عن الكرامة!

كنت جالساً وراء طاولتي في الغرفة المجاورة لمكتب صاحب المجلة، أقلّب الأمر على وجوهه، باحثاً عن وسيلة ناجعة للاحتجاج، حين خرجت من غرفته فتاة ممشوقة التفتت إليّ فتوقّفتْ لحظة ترشقني، من عينين سوداوين نفّاذتين، بسهمٍ اخترقني حتى الشغاف... وذكرت اسمي متسائلة، فأومأت برأسي إيجاباً..

ابتسمت وهي تمدّ يدها مصافحة، وقالت:

ـ كنت، منذ دقائق، أتحدّث مع «عمّو» سعيد عنك...

وجلست «م» على مقعد قبالة مكتبي، وبقيتْ دقائق معدودة أخبرتني فيها أنها تتابع كتاباتي وتتذوّقها وأنها قريبة صاحب المجلة وأنها تعدّ لشهادة البكالوريا... وحين خرجت «م» تيقّنت أنني أُصبت منها بصعقة الحبّ، وأنّها سيكون لها معي شأن!

وفي ذلك اليوم، نسيت «مقلبي» الرحباني ورئيس التحرير، أو تناسيتهما... ومنذ ذلك اليوم، تسمّرت إلى مكتبي في «الصياد» أنتظر إطلالة البسمة المنعشة على شفتي «م» والنظرة الساحرة في عينيها السوداوين.

وبالرغم من أن «أناهيد» كانت قد كسرت التهيُّب الذي كنت أشعر به تجاه جسد المرأة، وأني كنت بالتالي مدعوّاً لمزيد من الجسارة في خوض التجربة الجديدة، فقد كنت أرتدّ إلى الفتى الراعش، المتعثّر المرتبك الذي عاشني وعشته في عهد المراهقة، كلما لقيت «م».

وقد انقضت أسابيع طويلة قبل أن أفاجىء نفسي، حين جاءت «م» إلى المكتب الذي كان صاحب المجلة غائباً عنه، بأن تناولت يدها التي امتدّت لمصافحتي، فرفعتها إلى شفتيّ وقبّلتها[1]. وحين نظرت إلى وجهها ورأيت ذلك الاحمرار يخالط وجنتيها، ويشكل مع بسمتها العذبة وشعاع عينيها السوداوين لوحةً من الجمال النادر، سمعتُني أتمتم، وأنا شبه فاقد الوعي، «حبيبتي م..» فمالت عليّ تُلامس رأسي بشفتيها، ثم انفتلت هاربة..

وغابت «م» في فصل الصيف التالي الذي قضته في قبرص واليونان مع بعض أقاربها، فكتبت لها رسالتين ورجوتها أن تكتب لي، ولكنها ردّت برسالة قصيرة قالت فيها إنها تخجل من أن تكتب لي، وتلحّ إلحاحاً يشبه التوسُّل والابتهال ألّا أنقطع عن مراسلتها..

قالت لي «م» حين عادت من رحلتها إن رسائلي إليها أجمل هدية تلقّتها، وستحتفظ بها إلى آخر عمرها. وطوال أربع سنوات أو خمس قضيتها في «الصيّاد»، ظلّت علاقتي بـ «م» علاقة حبّ هادىء صامت، تضيّق عليه المواضعات الاجتماعية، وعلى رأسها اختلاف في الدِّين لا يجرؤ أحدنا أن يخترقه ليطلق لنفسه حرّية اتخاذ موقف حاسم في اتجاه الارتباط أو الالتزام.

أكان إذن هو الحبّ المستحيل الذي وعاه كلانا، في آخر المطاف، فقرّرت هي أن تستجيب لدعوة أقرباء لها في البرازيل كان فيهم مَنْ

(١) من هذه الحادثة، استوحيت قصة «قبلة اليد» المنشورة في «أقاصيص أولى».

يطمح إلى التزوّج بها، في الوقت الذي قرّرت فيه أنا أن أستجيب لدعوة باريس التي أخذت تناديني بإلحاح، منذ أخذت أزهد في مواصلة العمل الصحفي؟

على أن المتنفَّس من هذا الحبّ المقهور، الذي لم يسمح لنا بأكثر من بضع قبلات استرقناها استراقاً، كان مزيداً من التفتّح الأدبي تجلّى بأن شرع لي سعيد فريحة باب القصة القصيرة، متراجعاً عن موقفه السلبيّ، لا سيّما بعد أن ترجمت عن الفرنسية عدداً من القصص نشرتها «الصياد» دون أن تشير إلى مترجمها...

والحقُّ أني كنت قد ثبّتُّ موقعي في المجلة، وكان صاحبها قد بدأ يعتمد عليّ في عدد من أبوابها، ويكلّفني بكتابة بعض المقالات، التي لا يجد الوقت لكتابتها.. وينبغي الاعتراف بأن عملي في هذه المجلة، وفي جريدة «بيروت» اليومية، طوال سنوات، قد وضعني في صميم الحياة السياسية اللبنانية، فعايشت فترة من التاريخ الوطني حافلة بالأحداث، وعلى رأسها اعتقال أركان الحكومة اللبنانية في قلعة راشيا عام ١٩٤٣ ونضال الشعب اللبناني ضد الانتداب الفرنسي في تلك الفترة، ثم عودة الوزراء منتصرين. وقد نضج وعيي القومي وعمق حسّي الوطني على صفحات هذه المجلة التي حملت آنذاك راية القومية العربية، كما أن جريدة «بيروت» التي كان شعارها «العروبة فوق الجميع» ركّزت توجُّهي والتزامي القومي. وأذكر أني بدأت مبكراً في كتابة القصص المستوحاة من النضال العربي الذي سيظل محور اهتمامي على صعيد الإنتاج الأدبي. وقد نشرت «الصياد» أول قصّة وطنية لي في عددها ذي الرقم ٩٣ بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٥ بعنوان «تذكار ثورة» التي أحكي فيها قصّة الفتى «هاني غندور» الذي شارك في إحدى المظاهرات ضد الفرنسيين، وأصيب برصاصة في رجله خلّفت لديه عرجاً دائماً.

وفي مكتب «الصياد» كنت أجتمع إلى رجال السياسة الذين كانوا يتردّدون على سعيد فريحة، ومنهم الزعيم رياض الصلح الذي كنت أكنّ له إعجاباً كبيراً، والمير مجيد أرسلان الذي كان يعلّق دائماً مسدسه إلى جنبه، ولا ينى يفتل شاربيه ويضرب بنطاله بخيزرانته، وأفاجأ أبداً بصوته «الرفيع» الرقيق الذي لم يكن يتناسب مع ضخامة جسمه. ولم أكن أحبّ الاجتماع بـ «الزعيم» أحمد بك الأسعد حين يزور صاحب «الصياد» لأنني كنت قد رأيته في مشهد لا أنساه:

فقد كنت ذات يوم أنتظر دوري عند الحلّاق «جورج» في ساحة البرج، حين دخل الأسعد، فأعطاه الحلّاق الدور الأول قبل ثلاثة أشخاص كانوا قد سبقوه، وكنت أحدهم.. ولم أكن أستطيع الاحتجاج... فالأسعد زعيم عشائريّ كبير تنحني أمامه الهامات.. وسكتّ على مضض. ثم حدث أن تقدّم ماسحٌ للأحذية، فسلّم على الزعيم الذي مدّ له يده فقبّلها، ثم جلس ليمسح له حذاءه. ولم تمض دقيقة حتى شاهدنا قدم الأسعد تركل وجه ماسح الأحذية ركلة شديدة أدمت شفتيه وأنفه، وسمعنا الزعيم، يكيل له الشتائم لأنه، وهو يمسح الحذاء، لوّث، بغير قصد طبعاً، جراب الأسعد الأبيض ببعض صباغه!

لم أطق أن أرى هذا المشهد، فأخذت أغلي، ثم قاومت رغبتي في الانفجار، فخرجت مكتفياً، تعبيراً عن الاحتجاج والاشمئزاز، بأضعف الإيمان!

أما في جريدة «بيروت»، فقد انتدبت طوال ثلاثة أعوام لحضور جلسات مجلس النواب ووصف وقائعها. وقد تابعت عن كثب خطب النوّاب، وأزعجني معظمهم إزعاجاً شديداً بجهلهم اللغة العربية وارتكابهم الأخطاء الفادحة وهم يخطبون... ولم أستطع أن أكبت ضحكة فاجأت حلقي حين سمعت في إحدى الجلسات رئيس المجلس المرحوم صبري حماده يخاطب النوّاب بقوله: «أيُّها النوّابون!» وحين تماديت في الضحك، هدّدني شرطيّ المجلس بإخراجي من قاعة الصحفيين إذا لم ألتزم حدود الأدب!

وكان رئيس الوزراء المرحوم سامي الصلح يخطب بلكنة تركية يحبّها النوّاب ويتفكّهون بها، لا سيّما حين يحضر وهو شبه سكران... ولا زلت أذكر أنه خطب ذات يوم في المجلس، وهو في تلك الحالة، فأراد أن يستشهد بما ظنّه حديثاً نبويّاً، فقال:

ـ قال محمد أفندي «وخلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»...

وهنا قاطعه المرحوم النائب حبيب أبو شهلا، الذي كان يحفظ القرآن الكريم، فقال:

ـ بل هذه، يا سامي بك، آية كريمة قالها الله باشا!

فانفجر مجلس النواب بالضحك، وتلعثم سامي بك، ففضّل إنهاء خطابه وجلس يدمدم بكلام تركيّ غير مفهوم...

وفي مكتب «الصيّاد»، تعرّفت إلى عدد من الكتّاب والأدباء الذين كانوا يتعاونون مع صاحب المجلة، فكنت أجد منهم التشجيع والرضى، وكان فيهم خليل تقي الدين وتوفيق يوسف عواد وعبد السلام العجيلي وشكيب الجابري وسواهم ممن أسهموا بعد ذلك في «الآداب».

ولا شك في أني أفدت من جوّ «الصيّاد» الذي كان حافلاً بالمعارك السياسية والنقديّة، فتعمّق لديّ حسّ المناقشة، وربما المماحكة، مما عرفه القرّاء في كتاباتي التي نُشرت في «الأديب» البيروتية و«الصباح» السورية و«بيروت ـ المساء» التي شاركت في تحرير صفحاتها الأدبية منذ إنشائها.

وظلّت علاقتي بـ «الصيّاد» قائمة حين سافرت إلى فرنسا لإعداد الدكتوراه، وبعد أن عُدت إلى بيروت، غير أنني لم أعمل في تحريرها إلا بضعة أشهر، لاضطراري إلى التدريس في الجامعة اللبنانية وكلية المقاصد الاسلامية، ردّاً للدَّيْن الذي كان عليّ لوزارة التربية وجمعية المقاصد، مما حملني على الاعتذار لسعيد فريحة عن عدم تمكّني من مواصلة التحرير في «الصيّاد».

كان سعيد فريحة، رحمه الله، صحفياً عصامياً، وقد مهّد العمل في «الصياد» الطريق أمامي إلى الصحافة الأدبية التي يسّرت لي أن أصدر «الآداب» عام ١٩٥٣.